الإشادة بالنصر عند الفراعنة

كان من أهم ما يعنى به ملوك مصر القديمة، بعد قيامهم بحروبهم التى سجلوا بها فى التاريخ أروع الانتصارات، أن يبادروا حال عودتهم إلى مصر ظافرين، بأن يذيعوا على الشعب المصرى بمختلف الطرق أخبار تلك الحروب، وما دار خلالها من المعارك، وما أحرزوه فى تلك المعارك من انتصارات.

فمن المعروف أن قوة الفراعنة إنما كانوا فى الغالب يستمدونها من قوة جيوشهم، ولا سيما أن الروح الحربية كانت قد تأصلت فى الشعب المصرى فى عصر الوحدة الثالثة[1]، بعد ذلك الكفاح المرير الذى تحمله بشجاعة وصبر تحت لواء محرره ومليكه الشاب أحمس الأول، بطل أول حرب استقلال وكفاح من أجل حرية مصر[2].

ولما كان أزهى العصور الحربية فى مصر القديمة على الإطلاق هو عصر الوحدة الثالثة « من سنة ١٥٨٠ — ١٠٨٥ قبل الميلاد»، لما كان شائعاً فيه من ولع الملوك بالفتح والغزو وخوض غمار الحروب، ولما شاع كذلك من نضج عسكرى بين أفراد الشعب، فقد رأينا أن نقصر بحثنا فى الإشادة بالنصر عند الفراعنه على أهم حروب هذا العصر، موقنين أنه يعتبر مرآة صادقة لما وصلت إليه مصر من مكانة اجتماعية تساعد على الاهتمام بنشر أخبار الحروب والنصر فيها.

وكان الملوك يتوخون من وراء نشر بلاغاتهم رفع الروح المعنوية للشعب، وبث روح الجندية فيه وتشجيعه على المساهمة فى الحروب المستقبلة بما يزيد

---

(١) اقرأ فى هذا نظريتنا التى نقول بها، مخالفين سائر علماء التاريخ والآثار من تقسيم تاريخ مصر القديم حسب ما طرأ على مصر فى عصورها السالفة من وحدة أو تفكك، وهى النظرية التي سجلناها أول مرة فى مجلة القانون والاقتصاد، بتاريخ يناير سنة ١٩٤٢، ثم أوردناها فى كتابنا « لمحات من الدراسات المصرية القديمة ». (صفحة ٧، وما بعدها).

(٢) Pahor Labib.Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten and ihr Starz, S: 35 ff.

من قوة الدولة ويعلى من شأنها ، فضلا عما كان يجده الملوك فى ذلك من فخار بما حازوه من انتصارات تخلد ذكرهم وذكر جيوشهم فى التاريخ . وكانوا يقصدون كذلك بنشر أخبار نصرهم على جدران المعابد الاعتراف بآلهتهم بما لها من الفضل فى انتصاراتهم لأنهم كانوا ينسبون إلى هؤلاء الآلهة ما نالوه من نصر فى حروبهم .

أما الوسائل التى اتبعها الفراعنة فى الاشادة بانتصاراتهم فقد اختلفت باختلاف الملوك وتطورت مع تطور وسائل الكتابة والتعبير . فقد بدأوا يدونون أخبار نصرهم بالكتابة ثم أصبحوا يعززون الكتابة بالرسم ثم أصبحوا يقيمون التماثيل أو يشيدون الأبنية المختلفة الأشكال لتخليد ذكرى نصرهم ، وذلك فضلا عما اعتنوا به من إقامة الأعياد والاحتفالات التى ينعمون فيها على قادة الجيش بالألقاب والنياشين . وسوف نتكلم عن كل وسيلة من هذه الوسائل فى شىء من التفصيل .

أولا — الكتابة

فقد بدأ الفراعنة يدونون أخبار نصرهم بالكتابة بأساليب متنوعة وبوسائل مختلفة ، فكانوا يجعلونها أحياناً فى صيغة شعرية ، كما ورد على لوح حجرى من الجرانيت الأسود وجد بمعبد الكرنك[١] ، وقد نقشت عليه قصيدة من الشعر تخليداً لانتصارات الملك تحتمس الثالث[٢] .

وكما ورد فى بردية ساليبه الثالثة[٣] التى دونت فيها قصيدة تشيد بانتصار الملك رمسيس الثانى فى معركة قادش ، وهى القصيدة التى ينسبها أغلب العلماء إلى بنتاؤور ، فى حين أننا نعتقد أنها من وضع شاعر مجهول ، وليس بنتاؤور إلا الناسخ لها ، وقد نقشت هذه القصيدة كذلك على معابد مختلفة .

وكانوا يجعلون أخبار نصرهم أحياناً أخرى بصيغة نثرية توخوا فى مبدأ الأمر أن تكون صيغة فصحى أيام أن كانت اللغة الفصحى هى لغة الكتابة

---

(١) دليل المتحف المصرى رقم ٤٢٠ .

(٢) P. Lacau: Stèles du Nouvel Empire.

(٣) S. Hassan: Le Poème dit de Pentaour.

الرسمية ، كماورد فى الإشادة بالنصر فى موقعة مجدو فى عهد الملك تحتمس الثالث[١].

ثم لما أصبحت لغة التخاطب العامية هى اللغة الرسمية للكتابة فى العصر التالى لذلك العصر ، أصبحوا بالتالى يدونون بها أخبار نصرهم ، كما ورد فى أخبار موقعة قادش على عهد الملك رمسيس الثانى[٢] .

ومما يلاحظ مع ذلك أن المصريين القدماء استعملوا الاستعارات الشعرية ، مستعينين بالكنابة والتشبيه ، فكان الملك رمسيس الثالث يسمى أسطوله باللهب العظيم ، ويسمى جيشه بالجدار الفولاذى[٣] .

أما الوسائل الكتابية التى كانوا يتبعونها فقد كانت مختلفة متعددة نذكر منها :

ا) أوراق البردى : فقد اعتاد الملوك على العموم أن يدونوا أخبار نصرهم يوماً بيوم على أوراق البردى ، ويحفظونها فى مجلدات خاصة تشبه أقلام الحفظ فى وقتنا الحاضر ، باعتبارها المستندات الرسمية لما ينقش من هذه الأخبار على جدران المعابد وغيرها ولما يذاع على الشعب بمختلف الأساليب . ونجد مثالا لذلك بردية ساليبه الثالثة الخاصة بمعركة رمسيس الثانى فى قادش السابق الإشارة إليها ، والتى كتبت فى الأصل بالخط الهيراطيقى[٤] ، والتى نجد ما ورد بها منقوشاً بنصه بالخط الهيروغليفى على جدران المعابد .

وقد ألف المصريون القدماء القصص للإشادة بنصر ملوكهم ، فعلى سبيل المثال فى عهد الملك تحتمس الثالث ألف المصريون قصة نسبوا إليه فيها مقدرته على هزيمة الأعداء حتى وإن لم يبرح الملك مكانه إلى ساحة القتال ، كما ورد فى بردية ساليبه الأولى ، وهى قصة استيلاء قائد الملك تحتمس الثالث المدعو تحوتى على يافا[٥] .

وقد ورد فى بردية هاريس رقم واحد إشادة بنصر الملك رمسيس الثالث على أعدائه وذلك فى الجزء التاريخى من هذه البردية[٦] .

---

(١) K. Sethe: Urkandan der 18. Dynastie, IV, 625-778.

(٢) Ch. Kuentz: La Bataille de Qadech.

(٣) H. Grapow: Die Bildlichen Ausdruecke des Aegyptischen, S. 164.

(٤) G. Moeller: Hieratische Lesestuecke, zweites Heft.

(٥) Pap. Sallier 1-3, in the British Museum.

(٦) W. Erichsen: Papyrus Harris I, Tafel 76-77.

ب) جدران المعابد : وقد درج الملوك على الاهتمام بنقش أخبار انتصاراتهم على الخصوص على جدران المعابد ، ومن أشهر الأمثلة لذلك ما دونه الملك تحتمس الثالث على جدران معبد الكرنك فى وصف انتصاره فى حروبه ، وخاصة فى معركة مجدو .

وكذلك ما دونه الملك سيتى الأول على جدران معبد الكرنك من الانتصارات فى حروبه ضد السوريين وأهل فلسطين وأهل ليبيا[١] .

وكذلك ما دونه الملك رمسيس الثانى من أخبار حروبه وانتصاراته ، وخاصة فى معركة قادش ، على أغلب المعابد فى مصر والنوبة ، مثل معبد العرابة المدفونة ومعبد الكرنك ومعبد الأقصر ومعبد الرمسيوم ، كما دون أخبار هذه المعركة فى بلاد النوبة على جدران معبد أبى سنبل .

وكان الملوك يتوخون من وراء نشر أخبار حروبهم والإشادة بالنصر فيها على جدران المعابد أن تقع تحت أبصار أكبر جانب ممكن من الشعب الذى يؤم هذه المعابد ، فكانت والأمر كذلك بمثابة الصحف السيارة فى هذه الأيام .

جـ) جوانب المسلات : وقد عثرنا على مسلات أقيمت خاصة لتخليد انتصارات بعض الفراعنة على أعدائهم ، وقد نقشت على جوانبها ألقابهم الدالة على هذه الانتصارات ، كقولهم عن الملك رمسيس الثانى « قاهر الحيثيين ». ومن تلك المسلات مسلة رمسيس الثانى المكتوب عليها هذه العبارة والموجودة فى معبد الكرنك .

د) قواعد التماثيل : وكانوا أحياناً يدونون أخبار نصرهم على قواعد ما يقيمونه من تماثيلهم ، كما نرى على قاعدة تمثالى الملك رمسيس الثانى الموجودين بمعبد الأقصر .

هـ) فى وثائق المعاهدات : كما أنهم كانوا يكتبون أخبار نصرهم فى المعاهدات التى يبرمونها ، سواء أكانت معاهدات صلح أو معاهدات عدم اعتداء ، والتى وجدنا بعضها تشير إليه نصوص على معبد الكرنك تدل على أنها كانت مدونة فى الأصل على لوحات فضية ، إحداها باللغة المصرية القديمة

---

(١) Lepsius: Denkmaeler, Abt: III, Bl. 127-129.

« الخط الهيروغليفى » [١]، والأخرى باللغة الحيثية (الخط المسمارى) [٢]، مما يدل على أنهم كانوا يجعلون العقود والاتفاق على صورتين لكل متعاقد صورة، كما هو حاصل فى العصر الحديث .

ثانياً — الرسم

كان من أهم وسائل الإشادة بالنصر فضلا عن الكتابة هو الرسم ، فقد كانوا يقربون إلى أذهان الشعب أخبار انتصاراتهم برسم صور المعارك ، وما دار فيها وما انتهت إليه من نصر يفخرون به . وقد تطورت استعانة الفراعنة بالرسم لهذا الغرض ، فبدأوا برسم الملك يتقبل من الإله أمون سيف النصر ، ومعه حبال أوثقت فيها أسرى البلاد المختلفة[٣] ، ويدل كل أسير منهم على أن الملك قد فتح بلاده وانتصر عليها ، مع رسم دائرة فوق كل أسير كتب فيها اسم البلد التى جاء منها وانتصر الملك عليها . ونجد مثالا لذلك قوائم بأسماء البلاد والقبائل التى غزاها تحتمس الثالث مرسومة على شكل أسرى موثقين بالحبال على جدران معبد الكرنك ، كما نجد مثل هذه القوائم على قاعدة تمثالى الملك رمسيس الثانى بمعبد الأقصر .

ثم بدأوا يصورون بشىء من التوسع بعض مناظر من انتصارات الملك ، كما نجد على صدر عربة الملك تحتمس الرابع وعلى صندوق الملك توت عنخ أمون .

ثم منذ عهد الملك سيتى الأول تطور الأمر تطوراً مفاجئاً ، إذ نجدهم منذ ذلك العهد يصورون الخطوات المميزة لسير القتال من البداية حتى النهاية ، أى ما يشبه الشريط السينمائى لكل حوادث الحملة حتى تنتهى بالنصر النهائى ، بحيث ينمهم الناظر إلى هذه الصور كل ما يتعلق بالحملة ونتيجتها دون الاستعانة بالنصوص . وإن كانوا قد اعتادوا أن يعززوا الصور بشرح لها يؤرخ الحملة ويسهب فى وصفها وكتابة أسماء الأمكنة والمدن وغير ذلك من عدد الأسرى وأنواع الغنائم وأسماء المواقع التى تم فيها النصر ..

ونجد مثالا لذلك على جدران معبد الكرنك حيث نجد شرحاً لمعارك

(١) K. Sethe: Nene Forschungen zu den Beziehungen ewischen Aegypten und dem Chattireiche.

(٢) S. Langdon and Gardiner, in J. Eg. Arch. VI, 1926.

(٣) Lepsius: Denkmaler Abt. III Bl. 179.

الملك سيتى الأول فى حروبه مع السوريين وأهل فلسطين . وحروبه مع الليبيين ورجوعه إلى مصر ظافراً بالغنائم الحربية والأسرى . واستقباله من كبار الكهنة وعظماء الأمة وأفراد الشعب ، وهم يشيدون بانتصاراته ويثنون عليه ، ثم تقدم الملك بالأسرى إلى إله طيبه اعترافاً بجميله[١] .

ثم تطور الأمر بعد ذلك ، فأصبح الملك لا يكتفى بتدوين أخبار نصره وتصويرها على جدران معبد واحد ، وإنما كان يتوخى أن ينشرها على جدران أغلب المعابد فى وادى النيل كله . كما فعل ذلك الملك رمسيس الثانى ، إذ دون بالكتابة والرسوم أخبار انتصاراته فى معركة قادش على أغلب المعابد فى مصر والنوبة ، مثل معبد العرابة المدفونة ومعبد الكرنك ومعبد الأقصر ومعبد الرمسيوم ، كما دون أخبار هذه المعركة وانتصاراته فيها فى النوبة على جدران معبد أبى سنبل .

ثالثاً — إقامة التماثيل

رأينا أن أسلوب الاشادة بالنصر قد تطور من الكتابة إلى التصوير ، ثم انتقل إلى خطوة أخرى فأصبح الملوك يستعينون بالتماثيل .

ومن أهم الأمثلة التى عثرنا عليها حتى الآن تمثال قصد منه الإشادة بالنصر ، وهو تمثال رقم ٧٤٣ بالمتحف المصرى . وإنه وإن كان علماء الآثار وكذلك المسئولون بالمتحف المصرى يعتبرون هذا التمثال خاصاً بالملك رمسيس السادس[٢] ، معتمدين فى ذلك على ما هو وارد على ظهر التمثال من نصوص ، إلا أننا نعتقد أن هذا التمثال يخص رمسيس الثالث ، وإنما اغتصبه الملك رمسيس السادس لنفسه ، وذلك بالأدلة الآتية : أولا — الكشط الظاهر فى خرطوشة تتويج الملك . ثانياً — الأسير الذى يمسكه الملك بيده وهو أسير ليبى ، فى حين أن المعروف أن الملك رمسيس السادس لم يحارب الليبيين ،

---

(١) Lepsius, Denkmaeler Abt III Bl. 127 ff.

(٢) وهو تمثال للملك مسلح بفاس الحرب وقابض على أسير ليبى ، يسير منحنياً خلفه ، ويتبع الملك أسد أليف .

راجع دليل المتحف المصرى الطبعة الأخيرة بالانجليزية لسنة ١٩٤٦ حيث يقول .

"Curious Statue of King Ramses VI, armed with battle axe and dragging by the hair a Libyan, who walks bent beside him. A tame lion accompanies the King."

وإنما الذى حاربهم أكثر من مرة هو رمسيس الثالث . ثالثاً — وجود الأسد بين قدمى الملك هو أحد المميزات المعروفة عن الملك رمسيس الثالث[١] مقلداً فى ذلك سلفه الملك رمسيس الثانى ، كما نجد ذلك فى مدينة هابو ، وليس ذلك من المميزات المعروفة عن الملك رمسيس السادس .

رابعاً — إقامة المبانى

وقد جرت عادة الملوك الأقوياء على إقامة المعابد أو إضافة أجزاء إلى المعابد المقامة ، اعترافاً بجميل الآلهة على ما نالوه من نصر فى حروبهم ، إذ نجد أن رمسيس الثالث بنى معبد مدينة هابو ودوّن على جدرانه النصوص والصور الرمزية الدالة على انتصاره على الليبيين وعلى أعدائه من قبائل البحر الأبيض المتوسط الذين هددوا حدود مصر الشمالية أيام حكمه . ومن طريف الصور المدونة على جدران هذا المعبد صورة رمزية تمثل الملك رمسيس الثالث وهو يهشم رؤوس أعدائه من أهالى البحر الأبيض المتوسط فى حضرة الإله هوراختى ، وصورة أخرى تمثل الملك وهو يقتل أعداءه ويساعده فى ذلك أسده الأليف ، ثم صورته وهو يقدم الأسرى إلى الإله أمون ، وصورة ثالثة تمثل انهزام الليبيين أمام الملك رمسيس الثالث وجنوده وعودة الجيش المصرى بقيادة الملك ظافراً من حروبه ، ثم منظر الملك يقود ثلاثة صفوف من الأسرى إلى الإله أمون ، مما يدل على أن الملوك كانوا يعتبرون النصر آتياً إليهم من الإله .

كما أن بعض الملوك أقام تخليداً لذكرى نصره مدينة بأسرها تحمل اسمه ، كما فعل رمسيس الثانى عند ما أسس فى السنة الرابعة من حكمه على نهر الكلب بسوريا مدينة رمسيس .

وكان ملوك آخرون يقيمون لتخليد انتصاراتهم نصباً تذكارية على صورة لوحات حجرية يضعونها فى المعابد المختلفة أو فى المكان الذى تم فيه النصر ، كاللوحة رقم ١٢٠ بالمتحف المصرى التى أقامها تحتمس الثالث فى معبد الكرنك إشادة بنصره على أعدائه . وكاللوحة التى وجدها رايزنر[٢] فى معبد أمون بجبل بركال بالقرب من الشلال الرابع ، وهى التى كان قد أقامها فى هذا

(١) Lepsins: Denkmaeler, Abt. III Bl. 179.

(٢) Reisner: A.Z.; 69, S. 24, 1933.

المكان تحتمس الثالث إشادة بانتصاره وذاكراً فيها طرفاً آخر من انتصاراته فى آسيا .

خامساً ــ حفلات النصر والأعياد

وكان من أول ما يهتم به الملوك بعد عودتهم من حروبهم وانتصارهم فيها إقامة حفلات النصر التى تعتبر خير إشادة بذلك النصر الذى أحرزوه ، بل لقد كانوا يقيمون لذلك الأعياد التى يقدمون فيها القرابين للآلهة ، شكراً على ما أولوه لهم من قوة انتصروا بها على أعدائهم. ونجد أظهر مثال لذلك الأعياد الثلاثة التى أقامها تحتمس الثالث ابتهاجاً بانتصاراته فى حروبه ، تلك الأعياد التى أصبحت فيما بعد فى حكم العادة السنوية التى تقام عاماً بعد عام ، وكان المصريون القدماء يستقبلون هذه الأعياد بأعظم مظاهر البهجة والسرور ، وأشهرها ثلاثة أعياد ، كان يقام أحدها باسم الإله أمون ، وكانت هذه الأعياد تسمى بأعياد النصر .

وكان يصاحب هذه الاحتفالات والأعياد بطبيعة الحال مظاهر مختلفة لتكريم الجيش وقواده وتكريم العلم الذى اتخذه الملك رمزاً لنصره . ومثال ذلك أن العلم الذى كان يتقدم جيش رمسيس الثالث يحمل فى أعلاه صورة رأس كبش أمون رع يعلوه قرص الشمس ، وهى بذلك صورة رمزية لأعظم الآلهة الذى كانوا يعتبرون أنه يصحب بشخصه ابنه الملك فى غزواته كما يفهم ذلك من العبارات المنقوشة على معبد مدينة هابو إذ جاء فيها أن الإله أمون يخاطب الملك قائلا له : « أى بنى الملك رمسيس الثالث ها أنا أمامك وإنى أطرح الأعداء أمام خيولك . . . » .

سادساً ــ الأنعام على القادة بالرتب والنياشين

وكان من مظاهر الإشادة بالنصر كذلك إنعام الملك على قواده الذين اشتركوا معه فى حروبه وقاموا بأعمال مجيدة بالرتب والنياشين التى كانوا يسمونها « ذهب البطولة » وهى عبارة عن أوسمة شرف خاصة مثل ما كانوا يسمونه « بالذبابة » رمزاً إلى المحارب الذى يتبع عدوه ويلاحقه كما تلاحق الذبابة

فريستها[١] ، وهى ما يسمونه اليوم اسماً قريباً من هذا الاسم وهو « الدبورة » .

كما كان الملك يهدى ضباطه أسلحة ثمينة ، ومثال ذلك نقرأ فى بعض النصوص أن الملك أمنحتب الثانى ابن الملك تحتمس الثالث كان يوزع على قواده الأكفاء بعض الأسلحة لمناسبة عيد العام الجديد الذى كان يحتفل به تمجيداً للانتصارات .

سابعاً — استحضار أمراء البلاد المهزومة

وكان من مظاهر الفخار بالنصر ليس فقط إحضار أسرى الحرب إلى العاصمة المصرية ، بل إن الملك تحتمس الثالث بعد انتصاره فى معركة مجدو التى خاضها ضد فلسطين وحلفائها أحضر معه أولاد الأمراء وإخوتهم كرمز للنصر ، وإن كان قد عمد بعد ذلك إلى تعليمهم فى مدرسة الكرنك ، حتى إذا تشربوا حب مصر وملوكها وأمنوا برسالة حضارتها العظيمة وثقافتها العالية أعادهم إلى حكم بلادهم خاضعين لفرعون مصر[٢] .

ولعل أشهر المعارك على الإطلاق التى اهتم فيها فرعون مصر بالإشادة بنصره فيها هى « معركة قادش » التى انتصر فيها الملك رمسيس الثانى هذا ، وإن كان الملك تحتمس الثالث من قبله قد احتفل احتفالا عظيما بانتصاره فى موقعة مجدو ، وأقام عيداً قدم فيه القرابين إلى الإله أمون الذى اعتبره سبباً مباشراً للنصر .

أما معركة قادش فهى التى خاض غمارها الملك رمسيس الثانى ، بعد أن أعد حملته لإخضاع الحيثيين وحلفائهم ، وقد هددوا ملكه بما عقدوه من تحالف ضده. ومما يهمنا فى موضوعنا هنا أن الملك رمسيس الثانى كتب تفصيلات هذه المعركة بالكتابة المعززة بالصور على أكثر معابد وادى النيل ، مما يدعونا إلى إيراد بعض تفصيلاتها كمثل لما كان يتبعه الملوك من التوسع فى الإشادة بانتصاراتهم .

---

(١) Erman-Ranke: Aegypten S. 631

(٢) وإلى جانب تلك الوسائل التى ذكرناها عن إشادة ملوك المصريين القدماء بما يحرزونه من النصر فى حروبهم نجد وسيلة استعملوها لذلك ، وهى جعل العصا التى يمسكها الملك على شكل أسير من أسرى الأعداء ، وكذلك نقش صور الأعداء عند مواطئ أقدامه .

فقد بدأ رمسيس الثانى فى هذا السبيل بإخضاع الشاطىء البحرى لفينيقيا كى يتخذ منه قاعدة حربية لحركاته المقبلة [١]. فلما تم له السيطرة على هذا الشاطىء ، أقام لوحاً تذكارياً من الحجر على نهر الكلب بالقرب من بيروت فى السنة الرابعة من حكمه ، سجل عليه انتصاراته حتى تلك السنة على ضفة هذا النهر وكانت هذه الحملة إنذاراً كافياً لملك الحيثيين المدعو ميتالا . فأخذ يجمع قواته ويؤلب الولايات المحيطة به كى تتحالف معه فى حربه ضد مصر .

وقد بادر رمسيس الثانى إلى حشد قواته فى نفس القاعدة الحربية التى استعملها تحتمس الثالث فى تمهيده لموقعة مجدو ، وهى حصن ثارو ، الواقع على الحدود الشمالية الشرقية من مصر بالقرب من مدينة القنطرة الحالية ، فى المنفذ المؤدى إلى شبه جزيرة سينا ومنها إلى القارة الأسيوية .

وعمد رمسيس فى هذا السبيل كذلك إلى الاستعانة ببعض الجنود المرتزقة من بعض البلاد الأجنبية ومنهم الشردونيين .

وقد قسم الملك رمسيس قوات المشاه تعززها الفرق الراكبة إلى أربعة فيالق وأطلق على كل فيلق منها اسماً من أسماء الآلهة وهم أمون ، ورع ، وبتاح ، وسونتخ . وكان قوام كل فيلق نحو خمسة آلاف مقاتل . أما رمسيس ففضلا عن قيادته العامة للجيش بما تستلزمه من حرس خاص يحيط به فإنه تولى قيادة فيلق المقدمة وهو المسمى بفيلق آمون [٢] .

ولم يأل رمسيس فى هذه الأثناء جهداً فى تدريب جيشه وتسليحه وتعزيزه بأحدث المعدات المعروفة فى عصره ، كما جمع له المؤن اللازمة من كافة أنحاء البلاد .

وفى حوالى يوم ١٧ ابريل سنة ١٢٩٦ قبل الميلاد تحرك الجيش المصرى من ثارو متجها نحو آسيا ، واستمر تقدم رمسيس شمالا على امتداد الطريق الساحلى حتى وصل إلى لبنان ، حيث توقف بالقرب من بلدة رمسيس التى كان قد أنشأها فى السنة السابقة لقيام هذه الحملة عند مصب نهر الكلب تخليداً لنصره السابق ، وحتى يجعل منها قاعدة أمامية بعد ثارو التى كانوا قد

(١) Ed. Meyer: Geschichte II, I.

(٢) Ch. Kuentz: La Bataille de Qadech.

ابتعدوا عنها كثيراً فى حين توخى الملك ألا يطيلوا خطوط مواصلاته .

فلما أتم رمسيس تأمين قاعدته الحربية الثانية وكان قد مضى عليه تسعة وعشرون يوماً منذ أن غادر ثارو قام على رأس جيشه ويمم شرقاً مخترقاً وادى الأورنث فى الشمال من سوريا دون أن يلقى فى ذلك أى صعوبة ودون أن يلتقى بالحيثيين حتى أشرف فى نهاية الوادى على آخر قمة التلال الواقعة عن شماله وتسمى « تلال قادش » فعسكرت القوات المصرية هنالك وكانت ترى على مرمى البصر مواقع العدو مرابطاً حول مدينة قادش التى لم تكن تبعد عنهم سوى مسيرة يوم واحد ويفصلها عن تل قادش الذى عسكر فيه المصريون مجرى نهر الأورنث(١) .

وفى الصباح المبكر من اليوم التالى استأنف الجيش المصرى سيره إلى الشمال حتى وصل إلى مدينة « ربلة » جنوبى مدينة شابتونا ، وعبر عندها النهر مرابطا فى الجهة المقابلة لها ، حتى يضمن لنفسه سلامة العبور قبل الاشتباك بالعدو .

وقام رمسيس بناء على معلومات مدسوسة عليه من بعض جواسيس الأعداء بالتقدم على رأس حرسه نحو الشمال يتبعه فيلق آمون أما باقى قواته فقد تركها تتبعه ببطء يتيح لها بعد ذلك أن تدخل المعركة موفورة النشاط .

وكان ميتالا ملك الحيثيين قد جمع فى هذا الوقت كل قواته فى الشمال الشرقى من مدينة قادش مختبئاً من قوات المصريين ، وجاعلا من المدينة فاصلا بينهم وبينه . وفى هذه الأثناء وقع فى يد المصريين جاسوسان أدليا بعد ضربهما بحقيقة مواقع الأعداء ، مما دعا رمسيس إلى الإسراع فى طلب فيلق بتاح ، وأمر وزيره بأن يسرع فى استدعاء الجنود المصريين الذين كانوا ما يزالون معسكرين فى جنوب شبتونا ، وأن يقودهم لينضموا إلى فيلق آمون وفيلق رع اللذين كانا قد اقتربا من منطقة القتال . أما فيلق سوتخ فلم يأمر الملك باستدعائه لينتفع به بعد حين .

إلا أنه حدث أن ملك الحيثيين — وهو أحد الأعداء — أسرع بعبور نهر الأورنت جنوب قادش ، وأمكنه مفاجأة فيلق رع الذى ما يزال فى طريقه

(١) J.H. Breasted: The Battle of Kadesch and Ancient Records of Egypt, III.

إلى مواقع فيلق أمون وعلى الرغم من أنه أفلح فى اختراقه وشطره إلى شطرين وتطويقه ، كما أوهن من عزيمة الجنود المصريين إلا أن الأخبار سرعان ما بلغت الملك رمسيس الثانى ، غير أن ذلك الملك الذى كان فى ريعان شبابه أظهر فى تلك اللحظة للملأ وأمام التاريخ عظمته الحقيقية ، إذ لم يظهر عليه أى اضطراب رغم دقة الموقف ورغم ما حاق بقواته بل تمالك نفسه واحتفظ بكل اتزانه وشجاعته وانتهز فرصة جشع جنود العدو فى السلب والنهب وقبض على ناصية الموقف من جديد ممسكا بدرعه ومعتليا عربته وأسرع قابضاً على ناصية فرسيه مخترقاً جيش الحيثيين وخلفائه وهجم وحده دون أن يصاحبه فى عربته من يمسك الدرع كالعادة المعمول بها فى ذلك الحين وشق طريقه بين صفوف أعدائه ومحاصريه بشجاعة خارقة للعادة وبأس يبلغ حد الإعجاز وبقوة وعنف لا عهد بمثلهما لقوات المتحاربين حتى ألقى بأعدائه مدحورين فى مياه الأورنت على مرأى من ملكهم بعد أن تبعه جيشه الذى سرعان ما اخترق الصفوف خلفه وأثخن صدور جنود الأعداء بوابل من السهام بعد أن أدركه المدد المصرى .

وبهذا النصر العظيم الذى أحرزه ملك مصر وجيشه الباسل على قوات العدو التى كانت تفوقه فى العدد ، أتيح للمصريين إبادة جيوش الحيثيين وحلفائهم . وأما ملك الحيثيين فقد هرب إلى داخل أسوار مدينة قادش ، حيث أرسل من هناك فى طلب الصلح مع الملك رمسيس الثانى الذى فرض عليه معاهدة اعتبر بها قاهراً للحيثيين .

وبعد عودة الملك رمسيس الثانى إلى مصر قام بتدوين أخبار انتصاره على المعابد فى كل مكان من مصر ، وفى أحد معابد النوبة كما ذكرنا فى هذا البحث ، وإن كان قد نسب النصر إلى الإله أمون . وكانت هذه هى الطريقة التى يتبعها الفراعنة فى نسبة النصر إلى الآلهة ، فكانوا بهذا يغدقون على المعابد ووكهنتها الهدايا والعطايا وأسرى الحروب ، ويوقفون باسمها الأراضى مما زاد فى نفوذ كهنة المعابد المختلفة وفى ثرائهم مما أدى إلى ما يشبه النظام الإقطاعى ، كما ورد فى بحثنا الذى سبق نشره بمجلة مصلحة الآثار المصرية (١) .

وإنا وإن كنا قد اقتصرنا فى هذا البحث على إيراد هذا المثل بالتفصيل

(١) Pahor Labib : Feudalismus.

عن أخبار الانتصارات عند قدماء المصريين والإشادة بنصرهم وذلك لأن الملك رمسيس الثانى كان يتبع خطة ثابتة فى إذاعة انتصاراته فكان لا يعود من حرب من حروبه إلا بادر إلى تدوين أخبارها معززة بالصور على أكثر ما يمكن من معابد وادى النيل ، مما يدل على أن الملك أراد نشر أخبار النصر على أكبر عدد من شعب وادى النيل ، إلا أن مثيلاتها كثير فى تاريخ مصر القديم إذ أن الفراعنة سجلوا كما ذكرنا فى هذا البحث(١) من أعمال البسالة فى ميدان المجد والشرف المثل الأعلى فى الإقدام والشجاعة تلك التى بعثت من جديد فى حرب فلسطين الأخيرة على يد حفيد محمد على الكبير حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول — القائد الأعلى للجيش — أعزه الله وأيد ملكه .

باهور لبيب

(١) أوردنا بعضها بالتفصيل فى كتابنا « الملك رأس السلطات » ، صفحة ٨٠ وما بعدها .